

اقراء ابن بطوطة

على ابن تيمية

ذكرني ما جاء في الجزء الرابع من المجلد السادس عشر من مجلة المجمع العلمي في ص ١٩١ من قول رئيسه عن كتاب تعاليم ابن تيمية الاجتماعية والسياسية تأليف صديقنا السيد هنري لاوست . نفذ مؤلف هذا الكتاب الى تاريخ شيخ الاسلام ابن تيمية وفاض كما يفوض العالم الذي لا مأرب له غير خدمة الحقائق في كتب هذا الامام الخ . ان بعض من ينتقده ويطعن في عقيدته ويقول انه يذهب الى القول بالجهة يستند الى ما ذكره الرحالة ابن بطوطة في رحلته (في ص ٥٧) « وكان بدمشق من كبار الفقهاء الخبابة نبي الدين ابن تيمية كبير الشأن ويتكلم في الفنون الا ان في عقله شيئاً وكان اهل دمشق يعظمونه اشد التعظيم ويعظمهم على المنبر (الى ان قال) و كنت اذ ذاك بدمشق فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع وبذكرهم فكان من جملة كلامه ان قال ان الله ينزل الى السماء الدنيا كتزولي هذا ونزل درجة من درج المنبر» .

وقد تبين لي بعد البحث والتدقيق ولا اعلم احداً تنبه لذلك قبل الآن ^(١) ان هذه القصة من وضع ابن بطوطة وانها محض اقراء على شيخ الاسلام ابن تيمية واليك البيان قد ذكر ابن بطوطة نفسه في ص ٥٠ من رحلته انه دخل دمشق يوم الخميس التاسع من شهر رمضان عام ستة وعشرين (وسبعائة) ونزل بالمدرسة المملوكية المعروفة بالشرابية .

وقد جاء في الدر المنتخب في تاريخ حلب للقاضي علاء الدين ابن خطيب الناصرية ^(٢) في ترجمة شيخ الاسلام ابن تيمية ما نصه بعد كلام طويل . « وهذا التناء عليه وكان

(١) كتب في هذا الموضوع الاستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار في مجلة دمشق ج ١٠ ص ٣

(٢) من مخطوطات مكتبة المدرسة الاحمدية بحلب وقد تكلمت عليه في الجزء الرابع من المجلد السادس

عشر (ص ١٨٦) .

عمره نحو الثلاثين سنة ثم جرت له محن بسبب فتواه في مسألة الطلاق الثلاثة وشد الرحال الى قبور الأنبياء والصالحين اوجبت القيام عليه وحبس مرات بالقاهرة والاسكندرية ودمشق وعقد له مجالس بالقاهرة ودمشق وحصل له في بعضها تعظيم زائد من السلطان وآخر الأمر ورد مرصوم شريف من السلطان. في شعبان سنة ست وعشرين يجعله في القلعة فجعل في قاعة حسنة واجري اليها الماء الخ ثم قال في آخر ترجمته توفي معتقلاً ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعائة» .

وقال ابن شاكر الكتيبي في تاريخه فوات الوفيات في أواخر ترجمة ابن تيمية مانصه : «وورد مرصوم السلطان في شعبان من سنة ست وعشرين يجعله في القلعة فأخليت له قاعة حسنة وأجري اليها الماء وأقام فيها ومعه أخوه^(١) يخدمه (الى ان قال) واقبل (وهو بالحبس) على التلاوة والعبادة والتهجد حتى أتاه اليقين فلم ينجأ الناس الا نعية وما علموا بمرضه (ثم قال) وكانت وفاته ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعائة» .

فقد اتفق هذان المؤرخان على انه اعتقل في شعبان سنة ٢٦ وظل معتقلاً الى ان أتاه اليقين وابن بطوطة يقول انه دخل دمشق يوم الخميس التاسع من شهر رمضان وانه سمعه يوم الجمعة العاشر منه يقول ما قدمنا ذكره عنه مع أنه باتفاق المؤرخين كان في شهر شعبان معتقلاً فكيف سمعه وهو معتقل وقتئذ . هذا ولا ريب محض اقتراب . ويؤيد قولنا ان هذه القصة مفتراة من ابن بطوطة ما قاله الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة في ترجمته (ج ٤ ص ٨٠) «قال شيخنا ابو البركات ابن البليقي حدثنا بفرائب مما رآه فمن ذلك انه زعم انه دخل القسطنطينية فرأى في كنيستها اثني عشر الف اسقف وقرأت بخط ابن مرزوق ان ابا عبد الله بن جزى تمقها وحررها بأمر السلطان ابي عنان وكان البليقي رساه بالكذب فبراه ابن مرزوق وقال انه بقي الى سنة سبعين ومات» .

(١) اخوه الذي حبس قسه منه اسمه عبد الرحمن وترجمته في الدرر الكامنة (ج ٢ ص ٣٢٩)

والقاعدة عند علماء الحديث وأصوله ان من حفظ حجة على من لم يحفظ والجرح
مقدم على التعديل فتبين بهذه النقول التاريخية وبما ذكره الحافظ ابن حجر ان هذه
القصة مكذوبة على ابن تيمية وانه يري منها .

وقد ظفرت في مجموع مخطوط بقصيدة من نظم شيخ الاسلام ابن تيمية تعرب
عن عقيدته فأحببت ذكرها هنا وهي :

يا سائلي عن مذهبي وعقيدتي	رُزق الهدى من الهداية يسأل
اسمع مقال محقق لا ينثني	عن قوله يوماً ولا يتحول
حب الصحابة مذهبي لي مذهب	ومودة القربى بها أتوسل
ولكنهم قدم عت وفضائل	لكننا الصديق منهم أفضل
وأقول في القرآن ما جاءت به	آياته فهو القديم المنزل
وصحيح أخبار الصفات أمرتها	حقاً كما ذكر الطراز الأول
وارد عهدتها الى تقالها	وأصولها عن كل ما يتجمل
وأقول قال الله جل جلاله	والمصطفى الهادي ولا أتأول
فجماً لمن نبذ القرآن وراءه	واذا استدبل بقول قال الأخطل ^(١)
واقتر بالميزان والحوض الذي	أرجو بأني منه رياً انهبل
وكذا الصراط على جهنم مده	فسلم ناج وآخر مهمل
والنار يصلها الشقي بحكمة	وكذا التقي الى الجنات سيدخل
والمؤمنون يرون حقاً ربهم	والى السماء بغير كيف ينزل
ولكل حي عامل في قبره	عمل يقارنه هناك ويسأل
هذا اعتقاد الشافعي ومالك	وابي حنيفة ثم احمد ينقل
فان اتبعت سبيلهم فموفق	وان ابتدعت فما عليك معول

محمد رغب الطباخي

(١) اشارة الى البت المشهور المنسوب الى الاخطل وهو

ان الكلام لني الزواد وانما جبل اللسان على التواد دليلا

بين ابن تيمية وابن بطوطة أيضاً

قرأت ما كتبه^(١) الأستاذ الطباخ تحت عنوان (افتراء ابن بطوطة على ابن تيمية) فرأيت ان اضيف اليه ما عندي في هذا الموضوع ، لينفي مثبتو الحقائق هذا البطلان الذي بعد عهده ، وضل مناصروه :

لم يكن ابن تيمية يعظ الناس على منبر الجامع كما زعم ابن بطوطة ، (١ : ٥٧) فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ على منبر الجامع) بل لم يكن يخطب او يعظ على منبر الجمعة كما يوهمه قوله : « ونزل درجة من درج المنبر » وانما كان يجلس على كرسي يعظ الناس ، ويكون المجلس غاصاً بأهله ، قال الحافظ الذهبي : « وقد اشتهر امره وبعد صيته في العالم ، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه » الخ وقال الشيخ علم الدين البرزالي في معجم شيوخه : « وكان يجلس في صبيحة كل جمعة يفسر القرآن العظيم » الخ . وانما كان يخطب الناس على منبر الجامع الأموي في عهد دخول الرحالة ابن بطوطة دمشق - قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ، وقد كان خطيب المسجد وامام الشافعية فيه ، وكان سكناه بدار الخطابة (ج ١ : ص ٥٦ رحلة ابن بطوطة) ومما تقدم يعلم ان ابن تيمية كان مدرساً واعظاً ، لا خطيباً ، وكان يلقي درسه في التفسير صبيحة كل جمعة وهو جالس على كرسي في الجامع الأموي ، لا واقف على منبر فينزل درجة عنه ، وقد اشار الى ذلك الحافظ المؤرخ ابن عبد الهادي بقوله : « ثم ان الشيخ جلس يوم الجمعة (اي بدمشق) على عادته ، وقال وهو يصف حاله وأعماله بمصر : « ويتكلم في الجوامع على المنابر من بعد صلاة الجمعة الى العصر » فهو لم يقل على منابر الجمعة ، ولا على منابر الخطابة ، والظاهر ان المراد بالمنبر كل ما ارتفع عن الأرض كما يؤخذ من مفهومه اللغوي ، فهو يعم هذه الكراسي التي يجلس عليها المدرسون في المساجد الكبرى بمصر والشام والعراق ليسمع منها الجماهير ، فكيف غفل ابن بطوطة عن ذلك ؟ وقال الحافظ ابن حجر : « وكان يتكلم على المنبر على طريقة المفسرين مع الفقه والحديث ، فيورد في ساعة من الكتاب والسنة واللغة والنظر ما لا يقدر احد على ان يورده في عدة مجالس ، كأن هذه العلوم بين عينيه (ص ١٥٣

(١) مجلة المجمع العالمي (ص ١٣٢ م ١٧)

ج ١ من الدرر الكامنة) وهذا مما يؤكد أنه كان يلقى درسه على كرمي يجلس عليه والمستمعون حوله ، فكلامه على طريقه المفسرين - من بعد صلاة الجمعة الى العصر ، وإيراده من الآيات والأحاديث ونصوص اللغة وأقوال العلماء في مجلس واحد ، ما لا يورده غيره في مجالس كثيرة كما تقدم - هو طريقة المدرسين المحققين في حلقات المجالس الكبرى ، لا خطباء المنابر وهم وقوف ، لاسيما وقد صرحوا بجلوسه في دروسه ، وهذا لا يتيسر على منابر الخطب الجمعية .

وبعد فهذه كتبه المخطوطة والمطبوعة ، ورسائله وفتاويه وردوده في العقائد قد بسط الكلام فيها على آيات الصفات والأفعال وأحاديثها كالوجه واليدين والاستواء والنزول وغيرها ، بالمعقول والمنقول ، وكلها يتضمن إثبات الأسماء والصفات ؛ مع نفي مماثلة المخلوقات ، اثباتاً بلا تشبيه ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، كما جاء في القرآن الكريم « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » فقله « ليس كمثله شيء » رد للتشبيه والتثليل وقوله : « وهو السميع البصير » دفع للإلحاد والتعطيل .

ألا وان العلوم الحديثة قد قربت فهم النصوص على طريقة السلف وبينت أنها الأعم والأحكم ، دع كونها الأهدى والأسلم ، فمن ذلك حديث النزول الذي أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين : « ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا » الخ فان الآلة التي تريك المتكلم الآن حاضراً عندك وهو لم يبرح مكانه (Télévision) تهبنا الى فهم النزول الى سماء الدنيا بلا انتقال ، وان هذا النزول هو صفة ذات لا صفة فعل كما قال القاضي ابو يعلى ، ومثله اسناد صفة الكلام اليه تعالى في قوله : « وكلم الله موسى تكليماً » وقول رسوله : اذا تكلم الله بالوحي ، فهو لا يحتاج الى تأويل فراراً من شبهة التشبيه ، فقد أنطق العلم الحديث الآن الجمادات فنطقت بغير فم ولا لسان كالحاكي مثلاً ، أفأبى قدرة الله وحكمته الا أن يتكلم بغير لسان كالأإنسان ؟ اليس هو القادر على أن يختم على فم الإنسان وينطق جسمه الصامت كما قال : « اليوم نختم على أفواههم ونكفنا أيديهم » الآية ، أفيعقل أن يكون هذا القادر الحكيم عاجزاً عن التكلم إلا بتثليل فم المخلوق ؟

وختام القول ان هذه الرواية مختلفة على ابن تيمية شيخ الإسلام سواء صحت عن ابن بطوطة أم لم تصح ، فهو لم يره ولم يسمع منه كما قال الأستاذ الطباخ ، وكما

نشرنا من قبل مقالاً ضافياً في موضوعه ، (في الجزء العاشر من مجلة دمشق الصادر في تشرين الأول سنة ١٩٤٠ الموافق لشعبان سنة ١٣٥٩) ومؤلفاته جميعها ترد عنه هذه الكلمة الشاذة ، بل لو ثبتت الرؤبة والسماع لقلنا ان ابن بطوطة شبه له ابن تيمية ، وحكايات الشبه والاشتباه في الأشخاص والأشياء لا تكاد تحصر ، وهي داخلية في باب الشخصية (Identification) من كتب الطب الشرعي وغيره .

على ان ابن بطوطة لم يكتب رحلته بقلمه ، وإنما أملاها على الكاتب الأديب ابن جزى الكلبي ، وقال هذا في المقدمة : ونقلت معاني كلام الشيخ ابي عبد الله بالفاظ موفية لما قصد التي قصدها ، موضحة للمعاني التي اعتمدها ، فيجوز ان يكون ذلك من تحريف النساخ ، أو وسوسة بعض الخصوم ، والله اعلم بذات الصدور .

محمد باجة اليطار